إياك نعبد وإياك نستعين'

17-8-2002

د. وسيم فتح الله

إذا تأملت سياق الواقع واعتراك همُّ الفتنة وانقطعت علائق ما عودتك نفسك إياه من عبادة محددة، فلا تيأس ولا تقنط ولا تتراجع عن مسيرك إلى الله، بل انظر إلى متطلبات الواقع الجديد وتدبر ما تفرضه عليك أوامر الله تعالى ونواهيه من عبادات وأعمال هي مقتضى هذا الحال ثم ارتق سلم الاستعانة بالله لتتحقق بهذه العبادة، وإياك أن تستسلم لوحشة النفس من انقطاع عملٍ قد عودتك إياه، فإنما مدار العبودية على قطع العوائد والتجرد من العلائق سوى الله تعالى، فإذا تمثلت بهذا فاعلم أنك – بإذن الله – لن تفتأ تجد للإيمان حلاوته المعهودة، وبطاعة الله الأُنس المنشود، وبعبادته القرب والتزلف من المحبوب الأوحد، فلا تفزعك بعد ذاك غربة ولا توحشك قلة السائرين في الطريق، ولتكن سيرة المعصوم صلى الله عليه وسلم قدوة لك في ذلك كله، فقد كان في موضع الشدة وخذلان الناس له عبداً متضرعاً إلى الله، وفي موضع الغلبة والنصر عبداً شاكراً لأنعمه، وفي موضع البلاء عبداً صابراً، وفي موضع انتهاك حرمات الله سيفاً بتاراً، وفي موضع الجهل معلماً رحيماً، وفي موضع الخلوة عبداً ذاكراً قواماً صوّاماً، بأبي هو وأمي صلى الله عليه

بقلم د . وسيم فتح الله

قد يكون الواحد منا مثابراً على صنفٍ من أصناف العبادة ولونٍ من ألوان الطاعات، يجد فيها حلاوة الإيمان ويتلذذ بمزاولتها بقربه من الله تعالى، ولكنه يميل إلى قصر عبادته على هذا اللون ويركن إلى ما تمليه عليه نفسه من صنوف الطاعة فيقتصر عليها، حتى إذا اختلت العوامل التي كانت تيسر له المداومة على هذه العبادة والتلذذ بها اختل بدوره التزامه بهذه العبادة فاضطربت لأجل ذلك حياته ولربما أصابه القنوط والانحسار بل ربما تعطل التعبد لديه بالكلية..فإذا نظر الواحد منا إلى واقعه الحالي فلربما وجد أنه كان على التزامٍ بلون من ألوان الطاعات قد يتمثل في أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر، أو سعيٍ في خدمة الفقير وإغاثة الملهوف، أو المرابطة على ثغر أو تجهيز غازٍ أو خلافته في أهله.. فإذا بالظروف قد تحولت والعوامل قد تبدلت فتعثرت السبيل إلى بعض هذه الأعمال إن لم تنقطع بالكلية، فإذا به يرى انقطاع عبادته المقيدة التي كانت تمثل جُلَّ مظهره التعبدي وإذا به كأنه وُتر عبادته جُلها أو كلها فيصيبه ما يصيبه من الهم والغم والحزن، ويفقد متعة العبادة وتضيع منه حلاوة الإيمان فتغدو حياته فارغة لا معنى لها، ولعل هذه الآفة هي ما أشار إليه ابن قيم الجوزية رحمه الله – آفة التعبد المقيد - كما يقول :" فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحد .."(مدارج السالكين)

والحقيقة أن من قصر عبادته على وجهٍ واحدٍ تدور معه وجوداً وعدماً لا بد له من تحرير موضع الإخلاص والتجرد في عبادته ليستوثق من عدم تعلقه بهذه العبادة لرجحان حظ نفسه فيها على

حظ خالقه، لأن الأحرى بالعبد وقد خلصت – فيما يحسب – نيته لله تعالى وتجردت له وحده سبحانه أن يدور مع ألوان العبادات بحسب مراد الله منه بمقتضى الحال الذي يلابسه، بحيث لا يكون غرضه تعبدٌ بعينه بل يكون غرضه مرضاة الرب تبارك وتعالى أياً كان الموصل إليها ؛ فصاحب التعبد المطلق يعمل على مرضاة الرب في كل وقت وحين بما هو مقتضى ذلك الوقت ، فحاله – كما وصفه ابن قيم الجوزية - :" ..فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم .. فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود.." (مدارج السالكين)إن العبد المطلق إذاً لا يتقيد بعبادةٍ "مريحة" تناسب ذوقه ورغبته وميوله، وإنما يسعى إلى عبادة الساعة كما يفرضها مقتضى الواقع؛ فإذا كان الواقع واقع أمنٍ واستقرار انصرف إلى الزهد والتنسك، وإذا كان واقع حاجة ولهفة وهيعة انصرف إلى إغاثة الملهوف والاشتغال بمصالح الناس، وإذا كان الواقع واقع جهل انصرف إلى تعليمهم، وإذا كان واقع فسادٍ وانحراف ترك عزلة المحراب – وإن كانت محببة إلى قلبه – وانطلق في أروقة المجتمع يخالط الناس ويصبر على أذاهم ليزيل المنكر ويقلله، وإذا كان الواقع مثاراً للنقع وضع البيان وأخذ السنان ، فهو على مراد ربه في كل حال، لا يضع عبادةً في غير موضعها ولا يضيع فرصة ارتقاء منزلة تعبدية في مظنتها.فالحاصل أن مقتضى عبودية " إياك نعبد" عند هذا العبد المطلق هي الدوران في فلك مرضاة الله سبحانه وتعالى ، فهو كالأرض الطيبة تنبت كل أشكال النبات الطيب وهي تسقى بماءٍ إيمانيٍ واحد " تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها " ؛ فهو لا يكاد يخرج من جنس عبادة حتى يدخل في غيره، ولا يكاد يسد عليه الخلق باباً من أبواب الطاعة حتى ينفتح له من الله مائة باب، قد أخلص قلبه ولسانه وجوارحه لله فسخر الله تعالى شتى منازل العبودية له يتبوأ منها حيث يشاء بتوفيق من الله وهدى.وإذا عُلم هذا تبين أن تحقيق هذه المرتبة من مراتب " إياك نعبد " لا يكون إلا باستيفاء مقدمات وأسباب " إياك نستعين " ؛ إذ لا حيلة للعبد في التحقق بشيء مما مضى إلا بحول الله تعالى وقوته، ولذا كانت وصية الحبيب صلى الله عليه وسلم لحِبِّه معاذ بن جبل :" يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، ولهذا لم يكن أهل العبادة على شيء إذا ما وُكلوا إلى أنفسهم، بل لا بد لأهل العبادة من أن يكونوا من أهل الإستعانة، لا سيما إذا أرادوا التحقق بأعلى مراتب "إياك نعبد" فلا سبيل لارتقاء تلك المنزلة إلا بأسباب " إياك نستعين".

وهكذا أخي في الله، إذا تأملت سياق الواقع واعتراك همُّ الفتنة وانقطعت علائق ما عودتك نفسك إياه من عبادة محددة، فلا تيأس ولا تقنط ولا تتراجع عن مسيرك إلى الله، بل انظر إلى متطلبات الواقع الجديد وتدبر ما تفرضه عليك أوامر الله تعالى ونواهيه من عبادات وأعمال هي مقتضى هذا الحال ثم ارتق سلم الاستعانة بالله لتتحقق بهذه العبادة، وإياك أن تستسلم لوحشة النفس من انقطاع عملٍ قد عودتك إياه، فإنما مدار العبودية على قطع العوائد والتجرد من العلائق سوى الله تعالى، فإذا تمثلت بهذا فاعلم أنك – بإذن الله – لن تفتأ تجد للإيمان حلاوته المعهودة، وبطاعة الله الأُنس المنشود، وبعبادته القرب والتزلف من المحبوب الأوحد، فلا تفزعك بعد ذاك غربة ولا توحشك قلة السائرين في الطريق، ولتكن سيرة المعصوم صلى الله عليه وسلم قدوة لك في ذلك كله، فقد كان في موضع الشدة وخذلان الناس له عبداً متضرعاً إلى الله، وفي موضع الغلبة والنصر عبداً شاكراً لأنعمه، وفي موضع البلاء عبداً صابراً، وفي موضع انتهاك حرمات الله سيفاً بتاراً، وفي موضع الجهل معلماً رحيماً، وفي موضع الخلوة عبداً ذاكراً قواماً صوّاماً، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ..

فالله الله يا إخواني عملاً دؤوباً وعبادةً لا تفتر وشوقاً لا ينطفئ ، ولتكن المداومة على المسير بقدر ما ترددت فينا الأنفاس حتى نلقى الله تعالى بإحدى الحسنيين إن شاء الله ؛ إما النصر وإما الشهادة...